

الأمثل في تفسير كتاب الأ المنزل

[440] إذا أقبلت عليهم النعم، ولا يهنون أو يأسون أو يجزعون عند إدبارها، إنهم مصداق قوله تعالى: (رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) فأريح التجارة لا تنسيهم ربهم، إنهم عارفون حق المعرفة بفلسفة النعمة والبلاء في هذه الدنيا، يعلمون أن الابتلاءات ناقوس خطر لهم، بينما النعم اختبار وامتحان إلهي لهم. ومن الابتلاء ما يكون أحياناً عقوبةً للغفلة والنسيان، والنعم لإثارة دوافع الشكر لدى العباد. ويلفت النظر هنا طرافة الاستخدام القرآني لكلمتي "أذقنا" و "مسّه" والتي تعني أنهم مع قليل جداً من إقبال الدنيا عليهم يتغيرون وينسون ويصابون بالغرور، وهؤلاء مع "مسّة" قليلة من ضرر أو بلاء يصابون باليأس والقنوط. من هنا نقف على قيمة سعة الروح، وتدفق النفس بالإيمان، واتساع آفاق الفكر، وانسراح الصدر، واستعداد الإنسان لمواجهة المشاكل والصعاب، وتحدي المزالق والأهواء، التي تعتبر جميعاً من ثمار الإيمان والتقوى. يقول شهيد المحراب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في أحد أدعيته التي تعتبر درساً لأصحابه: "نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإيمانكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية، ولا تحل به بعد الموت ندامةً وكثابة" (1). الآية الأخيرة تتضمن الخطاب الأخير لهؤلاء، وتبين لهم - بوضوح - الأصل العقلي المعروف بدفع الضرر المحتمل، حيث تخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتقول: (قل رأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أصل ممن هو في شقاق بعيد) (2). ومن الواضح أن هذا الكلام إن ما يقال للأشخاص الذين لا ينفع معهم أي دليل منطقي لشدة عنادهم وتعصبهم. فالآية تقول لهؤلاء: إذا كنتم ترفضون حقانية

1 - نهج البلاغة، الخطبة رقم 64، 2 - "أرأيتم" تأتي عادةً بمعنى "أخبروني" وتفسّر بنفس المعنى.